الفصل الحادي عشر

في تونس

حين هبطت في مطار تونس – يناير 1982 – بملابس صيفية كنت أرتديها في حرارة جوبا الشـديدة وأمطارها في ذلك الوقت، خرجت أبحث عن تاكسي، في درجة حرارة لا تزيد عن خمس درجات، في تاكسي من تاكسيات تونس القديمة، وقتها لفحني هواء الشتاء القارس لأجد أن عنوانًا لم يترك لي مـن المنظمة للوصول إليه، لكنني وجـدت مظروفًا عليه عنوان المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – "القباضة الرئيسية" شارع محمد الخامس. السـائق يعـرف فقط أن "القباضـة" تعني مقر هيئة البريـد! ولا يعقل أن اسـكن أو أجد أحدًا هناك ذلك المسـاء. ثم إن المنظمات العربية "هازوما برشـة" في تونس، فأي منها تريد؟ ذكرتُ الاسم كاملًا حتى مررنا بمبنى الجامعة العربية، سـأل السـائق فقيل له إني أقصد " أليكسو" فضحك من ذلك الاسم "الفصيح" الذي كنت ذكرته له. ومضى إلى مبنى المنظمة، وهو

يسخر أيضًا من عدم معرفتي بعنوان السكن بدلًا من مكاتب العمل في وقت متأخر مساءً بهذا الشكل، وكانت الثامنة مساءً في العصر البورقيبي تعني إمكان سؤال الأمن للمواطن عن وجهته في ذلك الوقت! رغم تميز حكومة محمد مزالي وقتها بقدر من الليبرالية، أظن أن التونسيين حلموا بها بعد مجيء زين العابدين بن علي..

وجدت المنظمة مضيئة، بحفل شاي لاجتماعات مؤتمر الثقافة أو التعليم. واستقبلني محمد عباس باسعيد مدير مكتب المدير العام للمنظمة (د. محيي الدين صابر) والذي كنت أعرفه أيضًا منذ كانت المنظمة بالقاهرة وكنا نتشاور حول التعاون الثقافي العربي الإفريقي.. أرسلني فورًا لنُزُل (فندق) ابن خلدون بحي "لافاييت"، حتى أقابل المدير صباحًا. ووجدت في الطريق محلًّا يبدو أن به بعض الملابس الشتوية لإنقاذ عظامي من الدمار الشتوي التونسي!

في مكتب محيي الدين صابر، وجدت ترحيبًا مريحًا للغاية، وتكليفًا بالعمل استشاريًّا في "جهاز تنمية الثقافة العربية الإسلامية"... وعندما ذكرتُ للدكتور محيي الدين، أنني أتصور أن يكون الجهاز لتنمية الثقافة "العربية" و"الإسلامية"، وليس "العربية الإسلامية"، بدأت ابتسامته معبرة عن الضيق بأكثر منها بالترحيب بالفكرة، كمن يقول: ها قد بدأنا الاختلاف، أو بالأحرى "الغلبة" وهو يردد ذلك عني وأمامي دائمًا. ابتسمت بدوري لأعلن القبول الذي لا مفر منه. ونصحني بالعودة لقرارات كثيرة بالمنظمة،

ملمحًا إلى أني قد أكون محقًّا لكن لا ننسى من يمول البرامج هذه الأيام في المنظمات العربية عمومًا...! بل وذكرني د. محيي الدين أنه ليس سلبيًّا كما يظن بعض المثقفين – زملائي! لأنه خاض معركة حتى في هذا الموضوع ليجعل الاسم "تنمية الثقافة" وليس "نشر الثقافة العربية الإسلامية" كما كان مطروحًا، مما كان سيسيء لنا في إفريقيا، وفق سمعة منتشرة عنا كاستعماريين أو تجار رقيق! وشكرته فعلًا على هذا الموقف الآتي معالجته كثيرًا في بعض ما كتبته في السنوات الأخيرة.

كان بالمنظمة عدد من المصريين الإداريين في الغالب، حيث كان المستوى مختلفًا في الجامعة العربية بالنسبة للحضور المصري. إذ كان هناك الباحث والدبلوماسي جميل مطر، والاقتصادي صلاح مميش وعبد الرازق حسن المفكر الاقتصادي وانضم خليل حسن خليل وهو أستاذ اقتصاد أيضًا، ومحمد حجي الفنان التشكيلي المعروف، وغيرهم من شباب متميز في قطاعات مختلفة...

كان لهذا الفارق بين المنظمة والجامعة معنى، وورد إلى ذهني كلمات د. محيي الدين صابر في حديثة إليَّ، إذ راح يقارن مع ظروف المنظمة فترة انتقالها لتونس، مع أن "الشاذلي القليبي" كان جديدًا أيضًا على منصب الأمين العام للجامعة العربية، بعد رفض محمود رياض للانتقال بها إلى تونس وفق المقاطعة العربية لمصر، لكن القليبي كان أقدر بحكم موقف تونس – على توظيف شخصيات من المعارضة المصرية، أو المتحفظين على

موقف الجامعة – بالقاهرة – من كامب ديفيد، فقبل منهم الشخصيات ذات الكفاءات المعروفة... وكان هذا الجدل يدفع د. محي الدين لتحذيري من إغراء الانتقال إلى الجامعة العربية، الذي كان مطروحًا طول الوقت كمدير للشئون الإفريقية هناك، وأتحرج هنا من القول إني كنت متحفظًا على ذلك طول الوقت أيضًا لأني رفضت فكرة "الوظيفة" الرسمية المقيدة لحركتي بشكل واضح دائمًا، وأنا القادم من مكتب سلطوي فعال تابعٍ لرئيس الدولة.

بل وكان السبب أعمق من ذلك، لأن الموقف الخليجي عمومًا كان متحفظًا على تمويل هذه المنظمات "العروبية"، منشئًا منظمات "المؤتمر الإسلامي" بنفس المسميات العربية للجامعة، فأحسست أنه في هذا الجو لا نشاط إفريقي محتمل يجعلني موظفًا في الجامعة، قدر إمكان تحملي لوضع استشاري، إلى أن يتضح وضعي في القاهرة، إزاء وجود ملفات قضية خبيثة مثل التي وضعت فيها. ورغم مقتل السادات، لم يتضح الموقف منها بعد. واكتفيت بصداقاتي في المنظمتين، ونجحنا في دفع وجود الأخ سمير حسني في الإدارة الإفريقية بالجامعة، شابًا مخلصًا حتى صار سفيرًا بها للتعاون العربي الإفريقي إلى أن خرج للمعاش 2016..! وقد عدت أنا للقاهرة بعد أن استقر الأمر فيها، مع تنقية الملف عند الجوازات بفضل تدخل مشكور من السيد خالد محي الدين، ومساعده رفعت السعيد طبعًا! حتى رجعت نهائيًّا خلال 1986، وإن بقي اسمي موضع مراجعة في الجوازات عند كل سفرة لمدة أكثر من عشرين عامًا!

في قلب تونس

أتاح لي الاستقرار المعنوي والمادي في تونس، ونعومة الحياة فيها، فتح آفاق عديدة، أرجو أن أستطيع تلخيصها...

سكنت في حي من أحياء الطبقة الوسطى قريبًا من وسط البلد وشارع بورقيبة الرئيسي، هو حي "لافاييت" المعروف، مما أتاح لي جوًّا شعبيًّا أفضل رغم ابتسامات الأصدقاء من "اشتراكية الشعراوي"...! وكان الأصدقاء من المغتربين القادمين مع وفرة من المنظمات العربية بعد كامب ديفيد يلوذون بأحياء راقية مثل بلفدير "والمنزه". وزادت الملاحظات تفكهًا بشرائي سيارة فيات 28 من السوق المحلي والجميع يستوردون (بدون جمرك طبعًا). بما تعدد من سيارات المرسيدس وبيجو وغيرها بين معظم موظفي الجامعة فيما تشابه مع سلوك أغنياء الحرب!

وكان أبناء منظمة النخبة التونسية يسكنون في أحياء وطنية في الغالب، ونسبة ملاك السيارات محدودة بينهم والارتباط ببناء شقة أو فيلا هو الأولوية مع صعود الطبقة الوسطى سابقين المصريين في ذلك بعدة عقود...

كان نظام العمل التونسي مزعجًا لي، لأنهم يعملون حتى الخامسة أو السادسة مساء متصلة أو براحة بسيطة، بينما المنظمات العربية وفق النظام المصري تتوقف عند الثالثة لنذهب للغداء وننام حتى يبدأ ليلنا... أو حيث الأصدقاء التوانسة في طريقهم للراحه والعشاء والنوم... وعندما أثير اللغط حول مراجعة هذا النظام التونسي الأوروبي صرح أحد الوزراء رسميًّا أنه

يمكن ذلك، لأن الجميع سيتحول إذن إلى الحكي في السياسة ولا يمكن تغيير النظام... وبقيت أتساءل طول الوقت، متى يزاول التوانسة أعمال السياسة إذن، وهم بالفعل نشطاء سياسيًّا؟

وقد أتيح لي في هذا الجو أن أستقبل عائلتي في إجازات نصف العام، وطوال الصيف ليستمتعوا بأجواء تونس، وخاصة أن ابنى الأكبر أيمن كان يدرس تفاصيل الطب المُرهِق بينما الصغيرة مي في المرحلة الثانوية ومقبلة على شهادتها الأصعب، وزوجتي توحيدة متمسكة بالإشراف عليهما مباشرة في القاهرة – أو مجبرة بسبب عدم استقراري – رغم مشقات وجودها في القاهرة وحدها مع الشباب..!

كان الجو السياسي يبدو هادئًا نسبيًّا وفق نظام الحزب الواحد (الدستور) البورقيبي، المريح بقيادة "الحبيب".. بورقيبة، لكن ها هي موجة تعدد الأحزاب أصلية أو صورية تهب من مصر السادات أو من طرف سنغور بالسنغال أو نيروبي أو كينيا، بسبب لبرلة اقتصاد السوق والانفتاح وفق سياسة البنك.. والصندوق! وقد اضطر بورقيبة أن يدفع بمحمد مزالي لإدارة هذه التعددية الحزبية الشائكة، فبدأ الديمقراطيون والاشتراكيون، والشيوعيون يتحركون بسرعة، ولأن صداقاتي متعددة مع بعضٍ من هؤلاء، فقد أصبحتُ بدوري قريبًا من جدل واسع في المجتمع. وكانت منظمات "حقوق الإنسان" و"النساء الديمقراطيات" حركات معترف بقوتها، وخاصة "حقوق الإنسان" المنظمة الواحدة القوية التي تحتل مكانة شعبية طيبة،

وأنا صديـق الكثيرين فيها، لأنها كانت تنظيما شـعبيًّا وليس منظمة كادر محترف على النحو الذي اتجهت إليه المنظمات المصرية للأسـف، كما أتابع "الاتحاد العام للشغل" الذي كان ينافس الحزب الحاكم منذ وقت أطول، لأن زعامته دائمًا منافسة قوية للرئيس من فرحات "حشاد" حتى "الحبيب عاشور"... وكانت الحكاوي عن تصارع "الحبيبين" تغني أي حديث على المقاهي أو في المنازل.

كنت أتصور أن تونس صاحبة الاسـم الأصلي "إفريقية" منذ الرومان وحتى الفتح العربي، سـتكون أكثر ألفـة بالقضايا الإفريقية، أو بالأفارقة أنفسـهم، لكن المفاجأة انتهت بـأني أكاد أكون الوحيد بين مثقفي المنظمة المعني بهـذا الموضوع، رغم أن مجلة "جين أفريك" يديرها تونسي؟ كما أن معظم مترجمي كتاب "التاريخ العام لإفريقيا" في اليونسكو كانوا تونسيين... أما شـعبيًّا فقد كان "الجماعة هازوما" – أي الأفارقة هم السمر القاطنون الجنوب غالبًا، ومنهم سفير واحد في الخارجية ما كدت أتعرف عليه حتى عُين في الكميرون؟ ومِنْ ثَمَّ ظلت القضية الإفريقية غائبة في صلاتي التونسية، وأنا القادم من معمعة الخرطوم و"جوبا"، في هذا المجال..!

لم أفهم ساعتها غرابة هذا الوضع إلا بعد القراءة في دراسات متناثرة، كيف كان "القيروان" مركزًا هامًّا للطرق التجارية من غرب إفريقيا، مرورًا بهـا إلى القاهرة والحجاز، وبعد قليل وجدت في معظم بيوت أهالي غرب القارة رسـالة "ابن أبي زيد القيرواني" الشـبيهة بألفيـة بن مالك، يحفظها

الآلاف عن ظهر قلب، شارحة للمذهب المالكي المعمم في شمال إفريقيا ومنها إلى أنحاء غرب إفريقيا، حتى صدر بعشرات الطبعات الإنجليزية والفرنسية أيضًا، وفقًا للنظام الاستعماري لمحاصرة شعوب المنطقة في عالم التراث والماضوية...

رغم كل ذلك ظلت المسألة الإفريقية غائمة، تتحرك فقط في نطاق منظمة "أليكسو" والجامعة العربية... وكنت أُفاجأ أحيانًا أن كثيرًا من مثقفي تونس لم يسمعوا باسمي أو كتاباتي كمتخصص في المسائل الإفريقية، وإنما وجدت اسمي مترددًا كباحث في الفولكلور وصاحب ترجمة كتاب "علم الفولكلور" لسوكولوف، وأنا الذي هجرت ذاك الفن من حوالي عشرين عامًا... ولم يمنع ذلك "الطاهر لبيب" السوسيولوجي المعروف عربيًّا كصديق عزيز أن يجرني إلى معهد المنشطين الثقافيين الذي يرأسه لأقوم بتدريس التراث.. وفي أحسن الأحوال ذكرني بعضهم بأني مَنْ استطاع عرض كتاب لوسيان جولدمان في علم الاجتماع..!

إلى أن فردت جناحيّ في الصحف بمقابلاتي أو كتاباتي عن إفريقيا، مما جعل البعض يضمني إلى "الجماعة هازوما" بمعنى أصدقائي الأفارقة..! كما تنوعت معارفي التونسية عبر مجالسي مع التراثيين، المسنين، وكان عددهم محدودًا.

كان المجتمع التونسي يغلي بالثقافة الثورية والإسلامية التنويرية، ولن أنسى مظاهرات استقبال الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم التي فاقت ما كان

لهما في مصر بكثير، حيث كان يحرص الآلاف على الاحتشاد لسماع الشيخ في الإستاد الكبير ويروجون أسطوانات أغانيه. ولم أفصل ذلك أبدًا عن الأثر الفكري الكبير لمجلة "أطروحات" وصحيفة "الطريق" للشيوعيين، والمجلة التحديثية "15 – 21" للإشارة إلى حركة التنوير الإسلامية (صلاح الجورشي وغيره). وهذه المظاهر الثورية هي الحركات التي مهدت مبكرًا لإمكانيات تمرد شعبي واسع، بل وكانت حركة الطلاب ذات باع في الإثارة الشعبية سواء من ديمقراطيين وحتى أتباع "أنور خوجه" الألباني. وكل ذلك دمره انقلاب "زين العابدين بن علي" بشراسة، حتى تحقق ربيع تونس..!

التفاعل من تونس

كانت فترة غنية بدورها في حياتي، وكان التحاور مع الحال المصري مستمرًّا عن بُعد غير أنه قريب إلى حد كبير.

كانت سياسة الشاذلي القليبي أمين عام الجامعة ومدير مكتبه القومي النشط أن يستفيد من الشخصيات المصرية الكبيرة والمعارضة، في لجان بالجامعة لوضع إستراتيجيات أو عقد المحاضرات الدورية أو حضور ندوات، فجاءت أسماء مثل فؤاد مرسي، ولطفي الخولي، وعادل حسين، ومحمد دويدار وعبدالباسط عبدالمعطي، بل وانعقد مؤتمر تأسيس "المجلس القومي للثقافة العربية" برعاية ليبية (عمر الحامدي) في تونس دون أي

حرج، وبحضور مصري مكثف من أعضاء لجنة الدفاع عن الثقافة القومية بمصر...

اقترن ذلك بالحضور العريض للمنظمات الفلسطينية مع قرار إخراجهم من لبنان إلى تونس (1982)، وقد صاحب استقرارهم بتونس وضواحيها عديد من الظواهر غير العادية، بدءًا من القبول الشعبي لاستضافة "المقاومة الفلسطينية" رغم آراء بورقيبة السابقة حول القضية، ومرورًا بأنواع الوفود القادمة لمقابلة الزعيم عرفات، وصولًا إلى حالة بذخ البعض في الإنفاق وأسلوب المعيشة والتملك، رغم حرص القيادة على محاصرة هذه المظاهر بشكل أو آخر.

وليس ذلك موضوعي هنا، لكن اللافت فيه فقط، مقابلتي لعديد من رموز القوى المصرية، سياسية وثقافية، بل واستضافتي لعدد ممن كانوا قريبين مني، يساعدني وجود الفنان عبد المنعم القصاص أساسًا كرجل مخضرم يعرف الكثيرين. وكنا نعيش دون زوجاتنا وكان ثمة براح اجتماعي لهذه العلاقات، وبشكل آخر كان وجود محمد حجي كفنان تشكيلي بارز مع عائلته عونًا آخر.

وكان وجود منظمة التحرير الفلسطينية في تونس سندًا لتيار العروبة، وللعمل السياسي عمومًا بحكم حيوية القضية نفسها في ذلك الوقت، وميل محمد مزالي رئيس الوزراء إلى الظهور بذلك الوجه، خاصة وأن مختلف الاتجاهات الفلسطينية، كانت تحضر لساحة تونس، مُمثلَه في قيادات

جورج حبش (الجبهة الشعبية)، ونايف حواتمة (الديمقراطية)، فضلًا عن وجود فاروق القدومي شبه الدائم. كان ذلك يفرض القيود على سلوك معظم الفلسطينيين، وقادتهم ودفعهم للتفكير في حلول "معتدلة" وخطط بعض القادة، أن يتيح أطروحات لحلول وسطى هي موضع جدل، لكنها ضرورية لإقناع الغرب بالوقوف إلى جانب القضية الفلسطينية رغم عدم حماس الكثيرين لذلك... حتى سمعت يومًا ما وقع من مهاجمة الزعيم جورج حبش لغرفة اجتماع مجموعة ممن كانوا يسمون جماعة الحوار مع أمريكا من أجل الحلول الوسط، وكاد يستعمل عصاه الشهيرة في وجه اجتماع برئاسة أحد كبار المفكرين الفلسطينيين المشهورين!

كانت صلتي بالدوائر الفلسطينية محدودة بالمسائل الخاصة بمواجهة التطبيع باعتباري أمين عام لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، كما أن صلة أخرى نشأت لمعاونة الجمعية الإفريقية للعلوم السياسية AAPS، وكنت أريد أن أكسر الاتجاه السلبي في تلك الجمعية خاصة بوصفي نائب رئيسها لشمال إفريقيا، بسبب مخاوفهم من التعاون مع المنظمة المتهمة غربيًا بأنها إرهابية، أو لمجرد كونها حركة تحرير سياسية وطنية. وذلك خوفًا من وقف المساعدات الأوروبية وخاصة الإسكندنافية للجمعية، وهو موقف سخيف وشائع تجاه حركة المجتمع المدني عمومًا، ورغم أن قيادات الجمعية معظمها من اليساريين (ولم يكن ذلك مهمًا) قدر ما كان الموقف خاصًا بتصنيف الجمعية في الغرب! وكان ثمة اعتبار جانبي آخر هو تصميم الزعامة الفلسطينية أن ترسل المساعدة باسمي في تونس، وأبعثها أنا للجمعية في هراري (زيمبابوي)

وشعرت أن هذه الطريقة لربط الأسماء لا المنظمات بمنظمة التحرير، مسألة تبدو مقصودة، فيما اعتبره البعض تكوين عملاء...! فتجنبت من ناحيتي كل ذلك بإحالتهم إلى مقر الجمعية في هراري حيث للمنظمة سفير قديم هناك. ولا أظن أنه تم إرسال المبلغ المتواضع

كان المأزق الآخر مع "المجلس القومي للثقافة العربية" وأمينه العام الأستاذ عمر الحامدي أحد رجال القيادة الليبية والذي يتنقل بين تونس والرباط وبيروت، بحرية طبعًا. وبدوت أنا والدكتور طاهر لبيب من رجالاته في تونس، بينما كان كل منا في وضع لا يسمح بأن يأخذ مثل هذه الصورة، إلا في شكل عمل بحثي أو نشاط ثقافي بارز "للثقافة الوطنية" فعلًا. كان صعبًا بالطبع أن يقبل أستاذ تونسي ينتمي للتيار العروبي ويتراشق مع الكسالى عقليًّا وفكريًّا بحدته ورقته المعروفة كما كان الموقف مع د. الطاهر لبيب وكان بالطبع معي في رفض التعاون في الثقافة عبر أي مال. لكن أسلوب الاندفاع الإعلامي والأيديولوجي الليبي كان غالبًا ومتسرعًا، بحيث لم ينجح أي مشروع من تونس عن طريقنا، فانتقل الحامدي بالفكرة إلى الرباط، إلى جانب التحرك التقليدي من بيروت، فصدرت " مجلة الوحدة" من الرباط، وترشح د. حيدر إبراهيم لأمانة المجلس لبعض الوقت، في حدود المنافسة مع مركز دراسات الوحدة العربية، أو التجمعات المرفوضة قوميًّا هنا وهنالك (من قبل سعد الدين إبراهيم وغيره).

النخبة التونسية

كان الجو الثقافي العام في تونس كفيلًا بأن يستوعب بعض همومي مع مصر نفسها من ناحية، والمصريين الوافدين كزوار إلى تونس من ناحية أخرى. كنت أسمي "السياسة" في تونس رغم محددات وحصار بورقيبة والبورقيبية، "السياسة المثقفة" فلم يحدث أن تعرفت على شخصية سياسية في قيادات الأحزاب من المحترفين التقليديين، حتى محمد مزالي رئيس الوزراء المتحدث اللبق، كان مثقفًا معترفًا به، أما الأصدقاء في عالم السياسة فكانوا من هذا النوع أيضًا. كان "محمد مواعدة" الشخصية البارزة من الديمقراطيين الاشتراكيين أستاذًا لعلوم اللغة، وكان أحمد إبراهيم القيادي بالحزب الشيوعي وزملاؤه من أساتذة الجامعة، وكان خالد الوحيشي، باحثًا متميزًا بالجامعة العربية وقيادي في حزب "التجمع الاشتراكي"، كما كان الكاتب الصحفي رشيد خشانة البارز في حركة حقوق الإنسان، وصلاح الجورشي بين الإسلاميين المستنيرين ويقف مع أصحاب تيار ومجلة 15 – 21 (القرنين الهجري والميلادي) التنويري. لم يمنع ذلك من وجود السياسيين المحترفين بالطبع في حركة الوحدة الشعبية (قومية)، أو الديمقراطيين مثل المسيري... إلخ، كما كانت ثمة بدايات لانقسام الحركة الشيوعية المألوف بين ولاءات يمينية أو يسراوية مختلفة، خاصة بين الحركة الطلابية... لكن الفكر الماركسي والحداثي بدا لي مطروحًا بعمق من اللينينية حتى جرامشي وألتوسير، إلى الطاهر لبيب وعبد القادر الزغل والهادي التيمومي وكان يأخذون النخبة في عزلة مثيرة أحيانًا حيث لا يصح للمثقف أن يكتب في

صحافة أو يكون حزبيًّا، بينما العامة من التونسـيّيْن محرومون من وسائل اتصال مناسبة إلا الفضائية الإيطالية لمجرد التسلية إزاء عدم معرفة الكثير باللغة الإيطالية، وإذ بها تصبح من مصادر تثقيف الجماهير على نحو خاص، تكملة لسهولة السفر السياحي للشط الآخر في فرنسا وإيطاليا.

كانت الحركة الإسـلامية مُحاصِرة بفلسفة مبكرة عن "تجفيف المنابع"، بدأها بورقيبة بمصادرة جامعة الزيتونة، حتى واصلها "بن علي" بمصادرة البـشر والحجر معًـا. لكن ذلك أطلق محاولات تفكـير ديني "ليبرالي" أو محافظ سـواء في جماعة 15 – 21 أو من تلاميذ الشـيخ الطاهر بن عاشـور نفسه. واللافت أن الجميع كان يسلم أن النخبة الفعلية للسلفية والتطرف في "هذا الأمر" هم الموجـودون في أوروبا. وقد صدقت هذه التصورات بعد "هجوم العودة" الذي مارسوه عقب انتفاضة ديسمبر/ يناير 2011 في محاولة للاستيلاء المبكر على السلطة كالعادة.. ولم يكن ذلك واردًا ومعظمهم كان يتم احتجازه في سجون "بن علي" تباعًا.

كان سهلًا طرح أفكار استمتعت بالجدل حولها مع صديق عزيز وفيلسوف مثل يوسف الصديق الذي يقدمونه كعالم أنثروبولوجيا القرآن، حيث طرح إعـادة قراءة القرآن بمنهج آخر يؤدي إلى ترابط معانٍ في القرآن وتفكيك أخرى، إذا رفعنا الميثولوجية عنه... إلخ، بل ورؤية الرسول نفسه بمنهج آخر أيضًا، تقدر فيه ثقافته التي اتصلت مبكرًا مع مثقفين يونانيين وفينيقيين وفرس، ممن شكلوا جماعات تجديد فكري في المنطقة كانت تلتقي في "الغوطة"

الدمشقية، بحضور النبي محمد عليه السلام، الذي حمل فكرًا لتوحيد الجزيرة العربية، دون أن يفرض سُنَّة أو فقهًا وقد كان كل ذلك من بدع السلاطين بعده، وفي رأيه وفق كتاب له أن "القرآن لم يُقرأ أبدًا"، أي لم تحسن قراءته إلا مصحفًا محفوظًا وليس "كتابا"، لا يعلم تأويله إلا الله وأن الله يخاطب البشر مباشرة وبمنطق تنظيري أحيانًا حول خلق الإنسان... إلخ.

والقياس على ذلك يجعلنا نفرد مساحات للثقافة في تونس ليس هذا العمل مخصصًا لها، ولكني أتحدث عن شواغلي في ذلك البلد الذي لم يكن من المصادفة أن يتفجر فيه الموقف الثوري مع مصر في وقت واحد بالعقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، فهي بلاد ابن خلدون والطاهر حداد... ولذا شعرت بضرورة اقترابي من تنظيرات علم الاجتماع هناك والحركة النسائية الديمقراطية التي تجاوزت قضية "الجندر" والجمعيات الأهلية إلى التظاهر في شارع بورقيبة الفسيح، فَرِحات ببراحه أو تعدد مظاهرات المطالب فيه أيضًا. حتى برزت بينهن عناصر ثورة ديسمبر 2010/ يناير 2011 بشجاعة نادرة (صفية فرحات – سهام بن سدرين – بُشرى بن حميد وغيرهن أستاذات وصحفيات فاضلات) ممن عرفت بسعادة حقيقية. وممن جعلن حركة المرأة مثل الاتحاد التونسي للشغل وحركة حقوق الإنسان، علامات لاستمرار النفس الثوري خلافًا لما جنيناه في مصر!

إفريقيا في تونس

لم ننجح في جعل تونس مركزًا نشـيطًا للعمل العربي الإفريقي، بسبب تكوين شديد المحافظة لوزراء التعليم العرب تحديدًا، ونسبيًّا وزراء الثقافة، فتحول الأمر في "جهاز تنمية الثقافة العربية الإسلامية" إلى مذكرات من جانبي والزملاء، نقدمها للعرض على السـيد المديـر العام – محيي الدين صابر – يسعى بها أحيانًا بين الوزراء العرب، ليحصل على بعض التمويل في مجال يفضلونه – وإن لم أشعر بالراحة – هو برامج تعليم اللغة العربية أو الإفريقيـة بحرف عربي على مسـتوى التعليم العام، أو الشريعة والفقه على مسـتوى الجامعات. ولم يحرص أحد على أن يكون المعلمون من دول عربية ناطقين جيدين بها، إذ حرصت السعودية في أغلب الأحيان على تعيين هؤلاء من باكسـتان أو مسلمي الهند ليدرسوا الإسلام بالإنجليزية بما كنا ننزعج من تجاهل العربية، وكاد بعضنا يسم ذلك بأنه تحد لوفرة المصريين وأحيانًا السودانيين من العناصر المناسبة..! بينما كان يحبطنا أن نُعلِّم الأدب العربي أو الفقة الإسلامي بالإنجليزية، في نيجيريا مثلًا حيث تتوافر أقسام الأدب العربي والإسلامي بالإنجليزية في عدد كبير من الجامعات النيجيرية، وبمعرفة أبناء البلاد أنفسهم!

بدأت أفكر مع زملاء توانسة وموريتانيين من العاملين خبراء في المنظمة أن نقوم بالبحوث النظرية من ناحية، وأن ندفع المدير للموافقة على إرسال وفود منا إلى بعض البلدان الإفريقية ذات الدلالة للعلاقات العربية الإفريقية.

واستقر الأمر بالنسبة لي على أن أكون ضمن وفود تزور مدغشقر، وكينيا، ونيجيريـا، وآخرين ذهبوا إلى بلدان أخرى، وبهدف أسـاسي هو دراسـة واقع الثقافة العربية والإسـلامية في هذه البلدان، وصفًا واقتراحًا بتوجيه المساعدات في الاتجاه المناسب.

كانت أول رحلة إلى نيجيريا، بصحبة عبد الرحمن أبو زيد رئيس جامعة جوبا ويوسف خليفة أستاذ اللغات الإفريقية بجامعة الخرطوم، واستهدفنا ولايـات الشـمال مباشرة، مع أن إيبادان في الجنـوب تكاد تكون من أكبر مراكز الدراسـات العربية الإسلامية في المنطقة، لكن حدود المهمة كانت تغطيها "كانو" و"كادونا" و"زاريا"، بجامعاتهم العريقة وخاصة الأخيرة... كان يكمن في زاريا مشروع "تاريخ الشـمال النيجيري"، بأعلى الكفاءات الأكاديميـة والوطنية، وحتى الأجنبية مثل هودجكين، وسـميث... ولم تفوتنـا زيارة المواقع ذات التاريخ مثل "سـوكوتو" وكاتسـينا... وأبهرتنا مراكـز التوثيـق الهائلة في هذه الجامعات بالشـمال مثل AREWA وكأنهم يريدون القول إن ها هو الشـمال أو التاريخ وليس مجرد المسلم المتأخر في ممالك الجنوب، بل إن حزب "مؤتمر شعوب الشمال" بزعامة "أمينو كانو" ذو النفوذ الواسـع بحداثيته وطبقته الوسـطى في الشمال كان منافسًا قويًّا لحزب "المجلـس الوطني" التحديثي أيضًا بزعامـة "نامدي أزيكْوي" في الجنوب. كما كانت جامعة أحمدوبللو بزاريا مُنافِسة قوية لجامعة "إيبادان"، بل كانـت مركزًا أقوى للفكر الاشـتراكي والماركسي هنـاك متقدمة عن "إيبادان"! وذلك كله مما جعل الرحلة مفيده حقًّا. وكتبنا عنها تقريرًا جيدًا

ما زال محفوظًا بالمنظمة في إطار النشر "المنظماتي" المحدود! ولعل كل هذه العناية بالتراث الإسلامي ممثلًا في مخطوطات لغة "الهوسا" بالحرف العربي (العجمي) جعل حزبًا شعبيًّا مثل المؤتمر يصدر بعض بياناته "بالعجمي"، بل ويظهر في الجامعة مَنْ يطالبون بأن تصبح الهوسا هي اللغة الرسمية بالإقليم وبالحرف العربي.

أعقب ذلك مشاركتي في زيارة كينيا بمشاركة الصديق "الطاهر لبيب"، وقد استمعتُ بصحبته وطرائفه، وكشفه عن "التعصب التونسي" تجاه "الأفارقة". شاهدنا عجبًا في بعض أحراش وسط كينيا، حيث الشيخ الطيب من بلاد الجنوب العربي أو مصر، يجلس وسط "حريم القرية" حولهن أطفالهن ممن يحفظن القرآن وبعض قواعد الشرع وأحكام الطهارة والحياة العائلية، لأن الرجال غائبون في العمل معظم الوقت، وعندها فهمت قول محي الدين صابر دائمًا إن نساء إفريقيا هن "حملة القرآن والإسلام" في القارة. وانتقلنا بعد ذلك إلى ممباسا على شاطئ المحيط الهندي، لنجد الآثار العربية الخليجية مختلطة بالآثار البرتغالية، التي زاحمت العرب في وجودهم فترة السيطرة الغربية على المحيط، منتزعة إياها من سلطنة عُمان وطبعًا كان "الانتماء الإسلامي" قد بدأ يغطي على الانتماء العربي، ليصبح الادعاء حول "عروبة اللغة السواحيلية وتراثها كبيرًا في كينيا، وممباسا بوجه خاص. وبدا احتياجهم ملحًّا بالطبع للمدرسين العرب من جهة، وخبراء التراث من جهة أخرى، فوضعتُ كل ذلك في تقرير لحق بأخيه عن نيجيريا...!

أما زيارة مدغشقر، فقد كنت فيها وحدي في مؤتمر ثقافي عربي إفريقي أيضًا، وكلفت بالذهاب لتمثيل المنظمة في "أنتناناريفو" عاصمة مدغشقر وكانت من أمتع سياحاتي الإفريقية (نافستها كيب تاون قليلًا بعد ذلك). بعد وقائع المؤتمر صممت على البقاء بقية الأسبوع، رفقة أستاذ "جنتلمان" من أبنائها من رافضي النظام الاشتراكي القائم، لكن متمسكًا بوطنيته وبقائه هنا مهما حدث! ومعه زميلته، (أندريا ماهارو) من بقايا نسل العائلة المالكة القديمـة (ميرينا) التي حكمت البلاد كإمبراطورية لعدة قرون، وربطتها بـدول المحيط الهنـدي والخليج العربي، أختلاطًا جعل اللغة الملاجاشـية (الميرينيـة في الواقع) خليطًا من العربية والماليزية ومكتوبة بالحرف العربي (العجمي) أساسًـا. لكن الفرنسـيين صمموا على تحويلهـا إلى لغة غريبة إلى حد أني وجدت مخطوطاتهـا القديمة محفوظة لعمل الأحجبة، وأعمال السحر باسم "السـورابي" أي الملاجاشية بالحرف العربي (العجمي) وفي هذا المجال عاونتني الأسـتاذة بالسربون صديقـة أخينا "الجنتلمان" الذي دفعه مذاقه للسياسة لأن يوجهني إلى أستاذة عظيمة من شخصيات الحزب الشيوعي الملاجاشي أو بالأحرى المؤتمر الملاجاشي للاستقلال AKFM، وتدعى Marie Gisele Rabesahala وكانت من الشخصيات القوية التي شـاركت في الكفاح الشعبي شبه المسـلح بالبلاد، حيث قدمت مدغشقر واحدة من أقوى التجارب المناضلة ضد الاستعمار الفرنسي إلى حد الثورة الدمويـة عام 1948 ومـا بعدها حتى الاسـتقلال 1960. ولذا ظلت هذه السـيدة قائدة سياسية في حزبها وخارجه حتى وقت قريب. بل واقتربت

من جمعية العلوم السياسـية الإفريقية، وحضرت إلى "أليكسو" في تونس دهشـة من عدم اهتمام العرب ببلدها، رغم الصـلات التاريخية القديمة، وحيث وثائق ميرينا عن اسـتجلاب الملك، والملكة أحيانًا لمعلمين عرب لأولادهم أو إرسـالهم للجنوب العربي حتى حول الفرنسـيون كل ذلك لفرنسا. والحق أني فشلت كاستشاري في أليكسو أو كنائب رئيس لجمعية العلوم السياسـية أن أقدم شيئًا لثقافة هذه الجزيرة في إطار التعاون العربي الإفريقي، ولكن الليبيين هم الذين قدموا الكثير بعد ذلك.

في تومبوكتو: اليهود والثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا

كانـت المهمة أوائـل هذا القرن، لحضور ندوة ضمن أنشـطة المنظمة العربيـة للتربية والثقافـة والعلوم، حول المخطوطـات، في باماكو، مالي. وجرى البحث عن مدى حضور الثقافة العربية الإسـلامية هنا وهنالك في القارة، وهو ما سافرتُ في اطاره لعدة بلدان إفريقية من قبل، حيث كان لدى الدكتور محيي الدين صابر – رئيس المنظمة آنذاك – اعتقاد راسخ أن الإسلام وصل سلميًّا "لكل" إفريقيا وليس بعضها كما يركز بعض المؤرخين العرب والأوربيين، بينما كان نقاشي معه دائمًا، حول أهمية مسـاهمة الفكر والمثقفـين الأفارقـة في صياغة ثقافاتهم التي تتعـدد جوانبها حتى لو كان أهل البلاد من المسلمين.

وبينما أنقل مثل هذا النقاش للأصدقاء الأساتذة من غرب إفريقيا الإسلامية، فإذ بأحدهم يقترب مني مبتسمًا قائلًا: "يا أستاذ، ولماذا تنسى مساهمة اليهود القادمين مع عرب الأندلس، في اختراق الثقافات الإفريقية حتى باسم الإسلام، الذي اضطروا لاعتناقه مؤقتًا..؟"

وباستمرار المناقشات التي لا أريد تحويلها هنا لدراسة – وأنا أكتب مجرد ذكريات – اتضح لي أن ثمة زحفًا ثقافيًّا كبيرًا في المنطقة الآن لتأكيد مكانة اليهود بين علماء المنطقة الإسلاميين، وبعضهم يعلن أن أصوله يهودية!

تذكرت أن لي صديقًا في تومبوكتو هو "عبد القادر ماما حيدرا" صاحب مركز للمخطوطات باسم العائلة، وتهرب من التعاون معنا ليرتبط بالمستشرق الإنجليزي الكبير "جون هانويك" صاحب المشروعات الكبيرة لبحوث الثقافة الإسلامية في إفريقيا. ومع ذلك قررت أن أذهب إليه في تومبوكتو التي تعتبر جوهرة المخطوطات والثقافة الإسلامية العربية، وغير العربية في المنطقة كلها قرب نهر النيجر "نيل العرب" كما يسمونه، ويطمح كلٌّ منا إلى زيارتها، حيث كانت جامعاتها شهيرة مثل سنكوري وجني ضمت يومًا في القرنين السادس والسابع عشر أكثر من ثلاث مئة عالم في الفقه الإسلامي للبحث والفتوى والتعليم.

سألت عن الطيران في مالي الذي يصل تومبوكتو ولأعود خلال يومين للسفر، فقيل لي إن الطائرة الوحيدة لا تعود إلا بعد أسبوع، أما الطريق البري الصحراوي، فإنه يتطلب يومًا كاملًا للذهاب، "وأنت وحظك في

العودة!" ومِنْ ثَمَّ استحالت المغامرة، فاكتفيت "بالدعبسة" في باماكو عن حكاية "اليهود المسلمين" وأثرهم في تومبوكتو وغيرها..!

سارع بعض الأصدقاء الماليين بالقول إن الأدبيات متوفرة فيما يبدو "حملة إعلامية". وذهب أحدهم إلى بيته ليحضر لي أكثر من كتيب حول الموضوع، بعضها صادر عن هيئات حكومية، وتبدو بحثًا علميًّا حول وصول عرب الأندلس ويهودها للمنطقة بعد الاضطهاد الإسباني، وتمت المشاركة مع البربر عقب ذلك عن طريق الاشتباك مع مدن المنطقة، حتى مع الإسلام الذي كان قد وصلهم قبل ذلك. وامتد الزعم في بعض الأدبيات أن القبائل الكبرى مثل قبائل "الفولا" أو "البيل" نفسها تبنت الإسلام عن اليهود المسلمين!

لست هنا بصدد الدراسة ولكني أعرض من بعض المقالات الهامة وخاصة التي كتبها الباحث المالي "إسماعيل دياديه حيدرا" صاحب كتاب "اليهود في تومبوكتو" Les Juifs a Toumboctou au xIx-Siecle 1999، عن عائلته ممن كانوا ضمن من فرض عليهم الإسلام بعد الاضطهاد من ممالك مالي وسنغاي والبربر، وهو يبدأ بعرض التاريخ بإخلاص الباحث حتى يصل للإعلان عن أجداده اليهود في "بلاد السودان" ذات الأصل العربي، والتي أصبحت "بلاد اليهود" حسب نصه.

ولجاذبية مقال حيدرا - والمسمى عند بعض الماليين "إسماعيل اليهودي"-

بعد الإعلان عن أصوله يمكن الإشارة لبعض الجمل منه (وأقدر هنا ترجمة م. سعد الطويل للنص الفرنسي).

فهو يرى تومبوكتو "أرض الذهب والآداب"، وحين استقر بها بعض اليهود، كانت طرق الذهب وقتها إلى مدن برشلونة، وتلمسان، وسجلماسة "طرقًا يهودية" لدورهم التجاري عمومًا وتجارة الذهب خاصة (وتشير ملاحظة حيدرا هنا إلى كثافة حضورهم)، ولكنهم واجهوا الاضطهاد في "تومبوكتو" بسبب فتاوي الشيخ المغربي "المغيلي" فاتجهوا إلى "جاو"، حيث تكرر اضطهادهم من المسلمين والمسيحيين، وسيطر العرب على نهر النيجر (نيل العرب). فتوقف اليهود أمام نفوذ القرآن، والسيف، واعتنقوا الإسلام. واشتهر بينهم علماء كإسلاميين – مثل عائلة "الكاتي" (أجداد كاتب المقال) الذين كانوا يحتفظون سرًّا بلقبهم "كوهين" في القرن الخامس عشر.

ومن القرن التاسع عشر تجمع اليهود ثانية في تومبوكتو بحيث بدءوا يقيمون صلاتهم الجماعية، وبنوا لهم معبدًا باسم "يهوداهو" عام 1863. واتجهت كتابات علماء مشهورين إلى تأكيد هذا النفوذ مثل "موريس ديلافوس" المؤرخ الفرنسي، بقوله بنسبة قبائل الفولا (البيل) إلى أصل سوري يهودي. كما أكد آخر مثل "الحاخام مردخاي" الأصل اليهودي للداجا. وحسب قول حيدرا فإن بلادًا كثيرة في غرب إفريقيا هي بلاد يهودية. وهكذا تصير بلاد السودان ذات الأصل العربي "بلاد اليهود".

لم أقصد هنا إلا لفت نظر الباحثين العرب إلى مسائل في التاريخ ذات

درجة من المصداقية حسب التحقق العلمي، ولكنها سرعان ما تصبح مادة "للتأثر" بأيديولوجيا سائدة، سواء قومية أو صهيونية. وهذا ما تفعله السياسة الإسرائيلية منذ نقل الفلاشا من إثيوبيا فما بالك وهم آلاف الآن أمام الضعف العربي؟ وقد رأينا "نتنياهو" يدعو يهود فرنسا بعد حادث باريس إلى العودة لإسرائيل، وقد جاء أصلًا للعزاء في أبناء فرنسا! والمؤسف أن علاقة بلد مثل مصر بجمهورية مالي تاريخية من جهة، وغنية فترة التحرر الوطني، ومع ذلك لم يكن هناك اهتمام "بتومبوكتو" وتراثها إلا مؤخرًا...

عن العرب وإفريقيا

والحق أن رحلاتي في أنحاء القارة، في إطار البحث عن وضع الثقافة العربية والإسلامية، ووجود المخطوطات العربية بكثافة فضلًا عن مخطوطات بلغات وطنية بالحرف العربي، مما أثار مشاعر كثيرة حول حقائق العلاقات الإفريقية، وعمقها وضرورة المحافظة عليها أو تطويرها بشكل مؤسسي. ودفع ذلك في طريق الحوار مع منظمة الوحدة الإفريقية (قبل الاتحاد) حول إمكانية إنشاء معهد ثقافي عربي إفريقي لهذا الغرض. واتفق الأطراف الثلاثة (الجامعة العربية – منظمة الوحدة الإفريقية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) على "إقامة المعهد الثقافي العربي الإفريقي" على أن تعد معاهدة الاتفاق بمعرفة المنظمة، وتعتمدها الأطراف الأخرى ويتحمل الجميع نفقات تأسيسه وميزانيته. واشتغلت مع الزملاء وبحماس محيي

الدين صابر للمشروع شخصيًّا حتى وقع الاتفاق عام 1983، ومثل كل الاتفاقيات العربية الإفريقية لم يرَ المعهد النور على أرض مالي إلا بمدير سعودي عام 2003..! ومن حسن حظي رغم تركي للمنظمة من 1986، أن كان أول إنتاج لهذا المعهد هو بحث لي عن "تراث مخطوطات اللغات الإفريقية بالحرف العربي – العجمي" الذي صدر مجلده الأول من إدارة باماكو سنة 2005. ثم صدر مع المجلد الثاني عام 2017 من الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة، متضمنين مخطوطات بالحرف العربي عن 16 لغة إفريقية جمعتُها وحررتُها بالتعاون مع أساتذة من حوالي عشر دول إفريقية. وهنا لا بد أن أشكر جهود صديقنا سمير حسنى السفير بالجامعة العربية مديرًا للشئون الإفريقية على جهود السفير زيد الصبان لإصدار الكتاب.

في الثمانينيات، كان خطاب "التعاون العربي الإفريقي" آخذًا في الانتقال من "الاقتصادي" إلى "الثقافي" عمومًا بسبب انهيار اسعار "البترودولار" وشعور الدول العربية البترولية بأن اقتصادها آخذ في التدهور، وأن الإنفاق في هذا الاتجاه لا بد أن يتجه "للترشيد" أو يبحث عن "منهجية أخرى"، أشرنا سابقا إلى توجه معظم هذه الدول إلى الدول الإفريقية الإسلامية في غرب القارة (السنغال) أو دول المصالح الغربية في شرقيها (مثل كينيا)...

ومن هذه المنطلقات اتجهت دول الخليج لدعم "المنظمات الإسلامية" بديلة للعربية، سواء في مجال وزراء التربية، وحتى اتحاد الإذاعة والتليفزيون.. إلخ، تحت مظلة "المنظمة الإسلامية للعلوم والتربية والثقافة" "إيسيسكو"

أي حتى نفس الاسم بتغيير بسيط..!

في هذه الأجواء ظل "الثقافي" آخر ما لدى المنظمة العربية لكي تبرر به وجودها، إزاء الضعف البيِّن في دور الجامعة العربية. ولولا المهارة والعقلية المنظمة للشاذلي القليبي أمين عام الجامعة، لبدأ انهيارها مبكرًا قبل أن تعود للقاهرة. وفي غياب الميزانيات للعمل العربي الإفريقي رحنا كما قلت نعتمد على بحوث مفيدة، كما بدأت ظاهرة عقد الندوات العربية لمعالجة الأزمة عبر إنشاء المؤسسات فتقدم عمل مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت لجمع شتات المفكرين القوميين وتطوير علاقتهم بالإسلاميين في "الحوار القومي الإسلامي" باشتراك إسلامي قوي، ونشأ منتدى الفكر العربي بالأردن، محتفظًا بالخيط العربي المستقل عن القوى القومية والإسلاموية على السواء، وصاغ الأمير الحسن وسعد الدين إبراهيم الأستاذ بالجامعة الأمريكية فلسفته تلك بذكاء وكفاءة مناسبة وإن توقف بعد إزاحة الأمير الحسن من منصب ولي عهد المملكة الأردنية! لكن سعد الدين إبراهيم وخير الدين حسيب مؤسس مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت لم يتوقفا عن التفكير في حشد المثقفين كل بطريقته، وكانت المسألة الديمقراطية الليبرالية آخذة في الصعود بالضغط الإعلامي الغربي المعهود، بينما المثقفون يعانون من قهر الجماعات الإسلامية، والحكام العرب الذين يغذون هذا الصعود، رغم مقتل السادات على أيديهم، واحتلال الجامعة، وكوارث العبث الإسرائيلي في بيروت، والحرب العراقية الإيرانية الظالم أهلها.

ومن هنا كانت الدعوة لإقامة منظمة "عربية لحقوق الإنسان"، وكانت الفكرة ناضجـة محليًّا في تونس أصلًا كما بدأت كذلك في الظهور بمصر، وعلى نحـو ما بالمغرب. لكن فكرة "منظمة عربيـة" ذات طابع عروبي في الأسـاس، جعلت اجتماعها التأسـيسي في أي عاصمة عربية أمرًا عسيرًا، فاتجهوا للاجتماع خارج "الوطن العربي" في "ليماسول" بقبرص عام 1983. وكانت المسألة كفضيحة عربية، لكنها "فرقعت" في وجه الواقع العربي بشأن الحريات. ومع ذلك فمن حسـن حظها أن نظام "حسـني مبارك" كان في بدايته، ويريد لفترة أن يلقى "ببياضه" الليبرالي، فسـمح بوجود "مقر غير معترف به رسـميًّا" أو قانونيًّا بالقاهرة، إلا بقدر ثقة "مبارك" شخصيًّا في شخص محمد فايق، الخارج من سجن لعشر سنوات في عهد أنور السادات، وهذه الثقة نتيجة تكوينهما العسـكري المشترك في بداية حياتهما. وفي نفس العام عقدت ندوة كبيرة في عمَّان بالأردن حول العلاقات العربية الإفريقية فيما بدا معالجة لانهيارها بدورها، إزاء موجه إعادة العلاقات الدبلوماسية الإسرائيلية مع الدول الإفريقية.

وكما ذكرتْ ذلك سابقًا، فإن البحث المطول الذي قدمته في الندوة عن علاقات إسرائيل بإفريقيا رجح أن قطع العلاقات مع إسرائيل في منتصف السبعينيات كان خدعة غربية إسرائيلية لجذب أموال البترول نحو القارة في ظل "الحوار الثلاثي – العربي الإفريقي الأوروبي"، وأن هذه المهمة قد انتهت وأصبحت إسرائيل هي الإغراء بنفوذها في البنك الدولي والصندوق لمساعدة الدول الإفريقية المنهارة وبدت الورقة مثيرة حيث اتهمها البعض

بالتفكير التآمري، لأن الأسباب كامنة في التقصير العربي، وعدم الحماس الإفريقي للعرب المستغلين أو التابعين..! ولكنـي أرى دائمًا أن التفكير التآمري لا يصدر إلا عن ظروف واقعية، يجيد المتآمر صياغتها.

كنت أعد أيام بقائي في تونس رغم استمتاعي بها لأعود للقاهرة إزاء ما تعارف عليه البعض من البقاء لأربع سنوات (لا أدري منشأ هذا العرف!) فشغلت بالكتابة، وأصدرت كتاب "العرب والأفارقة وجهًا لوجه" 1984، بل وأعددت بعض مواد "عرب وأفارقة في مهب الريح"...

دراسة عن الجاليات العربية في إفريقيا

لكن التجربة التي استغرقتني بعض الوقت هي عندما نشأت في الجامعة العربية الرغبة في دراسـة "أحوال الجاليات العربيـة في إفريقيا"، وأغراني الأصدقاء في الجامعة بأني مرشح قوي للقيام بهذا البحث، وكان الصديق "مهدي مصطفى" أمين عام مساعد من السودان ومحافظ الخرطوم لفترة يحمل لي تقديرًا واحترامًا متبادلًا، فأقنعني بهذه المهمة التي ستتحمل فيها الجامعة كافة النفقات والمكافأة المناسـبة... فقررت أن ذلك سيسـاعدني على اختصار الاستمرار في "الوظيفة" المحسوبة ماديًّا بينما الأفضل أن أقوم بعمل بحثي مفيد..!

كدتُ أتوسع في خطة البحث لتشمل عددًا من الجاليات من أنحاء القارة،

لكن ميزانية الجامعة لم تسمح بتمويل أكبر لخطة أوسع عن الجاليات في غرب إفريقيا، مع التركيز على اللبنانيين، (1985). قبلت وخططت للذهاب إلى السنغال وسيراليون، ونيجيريا وغانا إن أمكن وكانت الرحلة شاقة جدًّا لا تتوفر لها أية تسهيلات من سفارة أو إدارة..! ومع ذلك انتهيتُ إلى مادة بالغة الأهمية في عدة فصول لم تنشرها جامعة الدول العربية... لكن لخصتُها في ورقة بحثية عقب عودتي من تونس 1986 لندوة عقدها "رءوف عباس" بآداب القاهرة ونشر بحوثها عن "العلاقات العربية الإفريقية".. ويهمني هنا أن أشير إلى أهم ما خرجت به من اكتشافات. كانت أغلبية الجالية في غرب إفريقيا خاصة من جنوب لبنان أي من الشيعة غالبًا، نقلتهم السلطات الفرنسية أواخر القرن التاسع عشر ليعملوا بالتجارة في مجتمعات لم تتعامل بالسيولة النقدية بعد، لأن لبناني الشمال من المارون يتجهون للعالم الغربي بعد رحلة مرسيليا... واكتشفت أن أبناء الجالية لا يختلطون كثيرًا إلا خلال المحلات التجارية، وأنهم حتى لا يقيمون تنظيمًا اجتماعيًّا فيما بينهم لمصلحتهم، حتى النوادي الاجتماعية، رغم وجود شخصيات اجتماعية محترمة عديدة من أطباء ورجال أعمال، بل وأنهم لا يقيمون أي مؤسسة ثقافية للنفع العام أو الخاص... وكانت الملاحظة الأغرب هي كثرة محدودي الحال على غير الصورة الرائجه عن ثروات اللبنانيين في المطلق، وعندما سألت صدفة عن أديب أو شاعر بينهم، أحالوني لترزي متواضع يصدر مجلة يدوية أحيانًا بخطه أو على الآلة الكاتبة، ويفصل القمصان الرجالي. روى لي أنه منذ 27 سنة في داكار لم يستطع توفير تكاليف رحلة له ولأسرته

من داكار لبيروت (8 أشخاص) بسبب قيمة التذاكر، والأثقل منها هدايا للحارة كلها وبناء منزل له والبعض يبني مسجدًا. وهذا ما يمنع الكثيرين من زيارة لبنان إلا القادرين على السياحة..! وفي الغرفة التجارية رأيت أثر العلاقة مع الرأسمالية الفرنسية، ونسبيًّا المحلية، واعتبار اللبنانيين وسيطًا طيبًا... وهم يتحملون نتائج الاضطرابات، وفترات شغب الفقراء في داكار مثلهم مثل الموريتانيين، إلى أن تمر الأزمة، وفي كل الأحوال يتحول أي موقف في البلاد إلى صالح كبار الرأسماليين اللبنانيين بسبب علاقاتهم الخارجية الواسعة.

هذا الوصف للحالة اللبنانية في السنغال يكاد يتكرر في معظم بلدان غرب إفريقيا، حتى عندما عدت مؤخرًا لمراجعة بعض التطورات، إزاء رغبة بعض الأصدقاء في بيروت لنشر البحث ككتاب، وجدت عنصرًا جديدًا لا بد من بحثه عن أثر نمو الطبقة الجديدة من السنغاليين، وانسحاب الفرنسيين نسبيًّا من الأعمال البسيطة، فضلًا عن ظروف عولمة التجارة الدولية، واندماج اللبنانيين فيها، على رأس الاقتصاد السنغالي مرة أخرى. وهذه العناصر متكررة أيضًا مع اللبنانيين، ليس في غرب إفريقيا فقط ولكن مع انتشارهم في أنحاء القارة، وخاصة في ساحل العاج والكونغو، وجنوب إفريقيا بما يحتاج لدراسات خاصة، ولكني أذكر أن البحث في هذا الاتجاه أدخلني في عالم الاقتصاد الإفريقي المحلي، لأعرف موقع التجارة في الفول السوداني والكاكاو، وتنافس الفرنسيين والبريطانيين، بمد السكك الحديدية من داكار إلى باماكو، أو من لا جوس حتى كانو، بما يسميه البعض التحديث

الاستعماري، ونسميه العولمة الاقتصادية الإمبريالية المبكرة على رأي صديقنا الراحل أرشي مافيجي، أو صديقنا التونسي الهادي التيمومي.

كان شاغلي لبعض الوقت كيف عبر العرب عن علاقتهم بإفريقيا والإفريقيين، خاصة بعدما تابعت التوتر المستمر في موريتانيا نفسها بسبب التفرقة المعلنة بين "السودان والبيضان" في البلاد، أو حتى الموقف من الموريتانيين "العرب" في السنغال. وكانت الصورة مؤلمة، خاصة وأن كتب الرحالة العرب لم تكن موحية بالوصف الودي لمشاهداتهم في أنحاء إفريقيا، رغم أن هذه الكتابات من قِبل الرحالة هي التي أفادت الأوربيين كثيرًا في "كشف" إفريقيا أمام رجالهم ومصالحهم وكنائسهم.

شغلني دائمًا ضرورة تجميع "صورة الأفارقة في الأدبيات العربية"، مع توقعي لسوء وصفهم بالطبع منذ كتب عبده بدوي عن "الشعراء السود"، و"السود والحضارة العربية"... إلخ. وهو ما أعددته بحثًا مطولًا بعد عدة سنوات "لمؤتمر الجمعية العربية لعلم الاجتماع" الذي عقد في تونس، 1995. وقد بذلت جهدي لربط التراث الإفريقي بالعربي سواء في بعض محاضراتي بمعهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بالخرطوم، وقد أصدروا أحد كتبي عن علاقة حركات التحرير الإفريقية والعربية، كما استمررت بالجهد في تونس عبر تدريس مادة التراث العربي، ممثلًا في ابن خلدون وغيره وما تضمنه من إشارات عن طبائع الشعوب وفق جغرافيتها أو عرقيتها أو صلتها بالإسلام..!

ولم يهدأ لي بال حتى أصل لنواحٍ أخرى في العالم العربي، فنشرت كتابي عن "ثورة أنجولا الإفريقية" في بغداد، مع اهتمام أهل جامعة بغداد ووزارة الثقافة بالأمر، وانطلق النشاط في سوريا في علاقة خاصة بجورج جبور، الذي كان معنيًّا دائمًا بدوره الخاص وقربه من الرئيس السوري، على أمل أن يكون ذلك طريقًا إلى إنشاء وحدة دراسية عن إفريقيا، لم تتحقق أبدًا.. وكان بديل ذلك علاقات امتدت بجامعة دمشق، وأساتذة الاقتصاد السياسي مركزة على القضايا العربية في الغالب، أو تنظيم الاقتصاديين على مستوى عربي عبر أستاذ قومي معروف هو منير الحمش.

عالم المغارب

بقي انتباهي مشدودًا إلى المغارب الأخرى (الجزائر والمغرب) ما دمت في تونس، وبدا الموقف الشعبي من الجماعات الإفريقية أو ممن هم من أصل "إفريقي" مماثلًا للموقف في تونس. رغم توقعي أن ضغط الطموحات الأمازيغية والمرابطية، سوف تعمم شعورًا إفريقيًّا عمليًّا أكثر إيجابية تجاه إفريقيا. لكن ذلك لم يكن صحيحًا لأسباب تتعلق بوضع الأمازيغ في المغارب، وأما صداقتي مع الأصدقاء الذين يحضرون اجتماعات الجمعية العربية لعلم الاجتماع أو جمعية العلوم السياسية الإفريقية، وفي مقدمتهم عروس الزبير وسليمان الشيخ مثلًا فقد قادتني بالضرورة إلى الجزائر نفسها، سواء للمعهد الجامعي المحترم CREAD للبحوث الاجتماعية وصداقتي

فيـه مع عـروس الزبير أو نـاصر جبي وغيرهما أو في الجامعة نفسـها ممن تابعوا بحوثي أو التعاون مع مركز البحوث العربية. وحدث أن كان وزير التعليم الجزائري وصحبة سليمان الشيخ رئيس جامعة الجزائر في تونس في مؤتمـر لوزراء التعليم العرب وإذ ببحثي عن العلاقات الجامعية والعربية الإفريقية يجد استحسـانًا جعل تبـادل التحايا مع المسـئولين الجزائريين، بتقديم – مجامل طبعًا – من سليمان الشيخ، تدفع الوزير للتوجيه بترتيب زيارتي للجامعة الجزائرية فورًا وبحث تأسيس معمل (لابوراتوار) لدراسة وتدريس الشأن الإفريقي في الجزائر بتخصص واضح. وكانت فاتحة علاقة حميمة مع العاصمة الجزائرية امتدت بعدها إلى وهران مع أصدقاء أعتز بهم إلى الآن في مقدمتهم نورية رمعون عميدة معهد البحوث الإنثروبولوجية (كراكس) والأستاذ حسن رمعون أستاذ التأريخ البارز، كما دعمتها شعبية سمير أمين في الجزائر منذ دراسته المبكرة عن المغرب، وتعرفت معه بعمق على الصديق "علي الكنز". وكانت هذه العلاقات جميعًا تدفع لدعم وحدات الدراسة وليس مجرد إنشائها لأن دراسة إفريقيا متناثرة هناك في فروع العلوم الاجتماعية لكن التجربة في الجزائر كانت ذات معنى خاص لي أيضًا، حيث حملت الجميع إلى داكار بعد ذلك للاشتراك – وبقوة ملحوظة – في مجلس البحـوث الاجتماعية في إفريقيا بـداكار (كوديسريا) فتولى البعض مواقع هامة فيه، ونشر البعض بحوثه هناك.

وأدت ظـروف مماثلة تقريبًا إلى الصلة بالمغرب، منذ اخترنا يومًا أحد

أساتذتها رئيسا للجمعية الإفريقية للعلوم السياسية. ومع انشغال البعض الآخـر بالمناصب العليا أو مصالحه الخاصة حتى تأخر وصول المغاربة إلى جوهر العمل هناك، حتى سعدنا بفاطمة حرك، وعبد الله ساعف وغيرهم، ومساهمة حماسية من معهد الدراسات الإفريقية في الرباط... وظل الأمر في حالة صعود وهبوط بالمغرب وفق موقف السـلطة وجماعة المثقفين من "المسألة الصحراوية"، وهم لا يقبلون تسامحًا في أمرها بإجماع مدهش...

هكذا لم تُكتَب لي الراحة في تونس، والجميع يتصور أني أقمت في بلهنية العيش الرغيد هناك وكفى. وكنت بالطبع أحاول تحويل ذلك الانطباع إلى قدر من الحقيقة، في زيارات تمتد من بنزرت الفينيقية إلى "توزر" الصعيدية، إلى سوسة وصفاقس السياحيتين ناهيك عن مصيف "الحمامات"، ومتعة الاسـترخاء فيها... ولن أنسـى تحديدًا زيارتي لتوزر مع الصديق يوسف الصديق وزوجته الصديقة سـعيدة شرف الدين، حيث عشنا مع فلاحي "وصعايدة" مصر من "الخمَّاسين" في توزر، (الكادحين بخمس المحصول) إلى جوار نخيلهم وزيتونهم ومشاعرهم وتأصيلهم لأنفسهم بالجذور الهلالية وسوهاج وأسيوط..

وكانت النقلات بين المدن التونسـية مثيرة بحق لتميز كل منها بشكل لا يتوفر الإحسـاس به في مصر مثـلًا إلا في حدود ضيقة، ولذا كان ذلك مما يدهش القادمون من مصر... وهم كثر في تتابع نشـاط الجامعة العربية تارة، والدوائر الفلسطينية تارة أخرى، مما جعل مقر إقامتي بدوره، بعد أن

انتقلت لحي جديد ومسكن مريح أكثر – حي المنزه السادس – مقرًّا لحياة مصرية تونسية، كانت محل تقدير أو حسد أحيانًا. ولكن متعة أسرتي خلال إقامتهم الصيفية معي وخلال الجولات بهذه المدة كانت مصدر راحتي النفسية تعويضًا عن بعدي عن القاهرة.

ومع آخر السنة الرابعة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حدث ما جعلني أمام خيار البقاء أو الرحيل، فقد بدا إلحاح إمكانية الانتقال للجامعة العربية مديرًا للشئون الإفريقية، وحول المنصب الصوري في النهاية – صراع لا داعي لدخوله في المعمعات العربية المعروفة، فرفضت خوضه... وفي المنظمة جاءت أخبار بعدم توفر أية ميزانية لانعقاد مؤتمر رتبته لرؤساء الجامعات العربية والإفريقية، وجاء الاعتذار مقرونًا بأن ميزانية جهاز "تنمية الثقافة العربية الإسلامية" تكاد تكون غير متوفرة من أول 1986 وأن المدير العام محي الدين صابر سيدبر لبقائي بشكل خاص! فقررت الكتابة له بعدم رغبتي في الاستمرار في مثل هذا الجو لأتقاضى مرتبًا بدون مقابل! وكان العود أحمد للقاهرة...